أسرار الآلهة القديمة

«تحرك شيء تحت المجهر» لقد أنكر كثير من العلماء صحة تلك الظاهرة التي رآها العالم البيولوجي الألماني (أدوين سانتو) ولكن العلماءَ الآخرين هللوا لها واعتبروها معجزة.

كل ما في الأمر أن (أدوين سانتو) قد لاحظ طريقة جديدة لتكوين الخلية وخلق خلية جديدة فقد وضع بقايا البكتريا الميتة في محلول طعام فيه آثار من الليثيوم وقد تركت هذه في المحلول في درجة حرارة أعلى من درجة الغرفة بقليل لمدة 17 ساعة وفي هذه الأثناء وجد أن هذه الخلايا الميتة اندمجت وأصبحت خلايا تامة لها نواة وبلازما تشبه الكريات البيضاء وكانت تعج بالحياة.

لقد عرف البيولوجيّون منذ خمسين عاماً أنه حالما تموت الخلايا النباتية والحيوانية فإنَّ عناصر صغيرة جداً من الخلية تبقى حية وقد لوحظت هذه الظاهرة تماماً ويمكن تصنيفها باسم ناقلات الحياة غير معروفة الهوية أو الشخصية. وهذا يعني أنه بينما يكون موت خلايا الجسم سبباً في إنهاء الحياة البشرية إلا أن هذا لا يعني انتهاء الحياة في النباتات فالبكتريا حاملة الحياة باستطاعتها أن تساعد في بناء حياة جديدة بعد موت الواحدة منها فهي تبني كتلاً يمكن أن تستعملها جميع الكائنات الحية مثل البكتريا أو النباتات أو الحيوانات أو الإنسان، في المساعدة على تشكيل الحياة الجديدة. وهل هذا يعني أن الحياة بعد الموت أو البعث المنوه عنها في معظم الأديان هي قضية واقعية وهل هي خاضعة للبرهان العلمي يا ترى؟.

هنالك مسألة واحدة واضحة وهي أن ناقلات الحياة هذه تملك قوى مقاومة أكثر من أي كائنات حية أخرى معروفة ويمكن أن تستخلص من الأنسجة المغلية بالماء أو المتجمدة أو الأنسجة التالفة كيماوياً حتى من المومياءات التي عمرها خمسة آلاف عام.

وإذا رجعنا القهقرى إلى عام 1951 نجد أن العالمة البيولوجية (ليبيشنسكايا Lepeshinskaya) قامت بأجراء عدة تجارب وبذلك اكتسبت عداوة كثيرة من زملائها لأنها تعتقد أنها قد أثبتت أن الخلايا يمكن أن تتجدد وعلى وجه التخصص قد وجدت أن (ناقلات الحياة) من الخلايا قد نشأت من كريات دموية ميتة وتالفة.

وإذا سلمنا بهذا الرأي تبقى عدة مسائل دون جواب؟ فمثلاً يمتص الكائن الحي مثل هذه الخلايا في الطعام؟ كيف يمكن للاستقلابات في الجسم أن تعالج مثل هذه المسائل وهل هي ضرورية للتجديد في الخلايا؟

ولماذا يعمر الإنسان إذا حصل الجسم على إمدادات ثابتة من هذه المواد الحيوية الجديدة؟؟.

إنَّ هذا المنحى التفكيري شجع أحد العلماء في جامعة كاليفورنيا وهو (إيلوف كارلسون) أن يدَّعي ويطالب بإمكانية بناء المومياءات علمياً من جديد أي خلق فرد يظهر ويفكر ويشعر كأنه من أنسالِ مومياء فرعونية وقد اقترح عزل جينات (مورثات) من نسيج مومياء وإعادة تنشيط بلورات الأحماض النووية اللازمة للنفاد والتخلص من قانون المورثات فالنواة المستخلصة من خلية من نسيج المومياء سوف تحل محل نواة حية خصبة.

ومع أن هذه الحقيقة تبدو بسيطة إلا أنها عمل لم تتوصل الكيمياء الحيوية حتى من الاقتراب من إخضاعها أو التغلب عليها. فمن المحتمل أنه في يوم من الأيام القادمة سوف يولد رجل يحمل مورثات الفرعون بعد مضي ثلاثة أو أربعة آلاف عام من وفاة جده ولكن من المشكوك فيه أن مثل هذا الحادث الذي ليس له مثيل سوف يقربنا من حل لغز المصريين القدماء.

لقد كان الشعب المصري القديم من أذكى الشعوب التي وجدت وهذه الحقيقة شهد بها الأصدقاء والأعداء خلال ألوف السنين لكن التاريخ المصري القديم وحتى الحواريين المسيحيين كانوا معجبين بالنبي موسى لأنه كان قد تعلم الحكمة المصرية ومع أن الآباء المسيحيين الأولين انتقدوا فكرة أمنحوتب الرابع في التوحيد إلا أنهم لم يستطيعوا انتقاد العلوم المصرية التي كانت مختلطة مع الدين. وهذه الفرضيات لا تقدم طبعاً أي جواب لتلك الأحجية عن أصل الحياة ولكنها تساعد على إزاحة الغموض عن الديانة المصرية ومنحها أسساً علمية.

إعادة تجسد زهرة اللوتس:

لقد كان المصريون القدماء يؤمنون بالحياة بعد الموت فلم يصدقوا أبدا أن الموت هو نهاية الإنسان ولكن لم يكن هنالك اتفاق تام حول كنه الحياة الأخرى، واستمرارها فاعتقد بعضهم أن حياة ما تستمر في مقصورة القبر أما الآخرون فاعتقدوا أنها تستمر بين الطيور على الأشجار وبين الجعلان في الرمل أو في زهرة اللوتس التي كانت تنمو على ضفاف النيل وقد اعتقد آخرون أيضاً أن الأموات يحلقون في السماء بين النجوم أو تحت الأرض حيث يوافيهم إله الشمس في الليل.

وهنالك إحدى العجائب في الديانة المصرية وهي التقسيم الثلاثي للإنسان بعد الموت فكان أول شيء هو الجسم وبعده الروح وتسمى (با) وبعدها وأخيراً (كا) وكانت (كا) عبارة عن الملاك الحارس الذي يسبب السعادة والسرور والصحة وطول العمر، وأن الآلهة والفراعنة والناس العاديين لكل منهم (كا) وكان هنالك صور حائطية لا تعد ولا تحصى فيها رسوم مزدوجة، الواحد خلف الآخر بنفس الوضع ونفس المظهر وكان الشخص الثاني هو دائماً الـ (كا) وكانت (كا) الفرعون بها صفات خاصة لها أسماؤها الخاصة وهكذا كان تحوتمس الثالث يتكلم عن (الكا) خاصة ويقول: إنَّها الثور الظافر الذي كان يلمع في حلبات طيبة.

لم تكن روح الإنسان هي المسؤولة عن الحياة بعد الموت إلا أن (الكا) هي التي كانت مسؤولة وكان الجسم يحنط لأجل فائدة (الكا) حتى يستطيع أن يستعملها في

الوقت الذي يريد فقد كانت توضع تماثيل للجسم الكامل للميت في قبور الفراعنة وذلك لأجل أن تعرف (الكا) المظهر الفيزيائي لها وبالطبع كان الطعام والشراب المتروك في القبور غذاء لإنعاش (الكا).

وأما (البا) فكان عنصراً شبه الهي محصوراً في الجسم أثناء الحياة ولا يتحرر إلا عند الموت وتسجل ورقة بردي برلين رقم 3024 حديث أحد الرجال مع (البا) وفد ناقش أستاذ التاريخ المصري (ونفرد بارتا) هذا النص مع مشكلة (البا) في كتابه «حديث رجلٍ مع بائه» فكتب يقول: إنَّ (البا) يجب أن تشبه المتوفَّى ليس فقط في المظهر بل في الأخلاق والمعرفة والخبرة ويجب أن يعرف (البا) كل ما يعرفه «المتوفَّى» وإنَّ قوته السحرية لأن يتشكل بأي شكل يرغبه كان عاملاً من عوامل طبيعته الإلهية فهو سحر ولا يمكن أبطال مفعوله بالسحر. والجسم بالنسبة إليه ما هو إلا ظل أو تقمص وهنالك فرق جوهري بين الجسم والبا: إنَّ الجسم فقط هو الذي يخضع لعملية التقميص وذلك بجعل الجسم الحي يستطيع أن ينشد ترانيم التجسيد السحرية التي تؤهله وتجعله قادراً على نيل المغفرة والعفو وهو ما يحتاجه في الدار الآخرة و(البا) تجسيد لقوة الحياة لا تتأثر بالموت وعلى العموم فان (البا) تحتاج طقوساً من الضحايا وليس السحر المطلوب للتقمص وذلك لتأكيد وجود ه الدائم المستمر. ومع أن بعض النصوص من المملكة الحديثة تتحدث عن تقميص (البا) إلا أنها تبدو كأنَّها عبارة عن قضية اتحاد (البا) مع الجسم المتقمص أي الجثة أكثر من قضية تقميص «البا» نفسه.

إنَّ (البا) ينبعث ويخرج كشخصية مستقلة عند موت الجسم فقط وهكذا فان النصوص القديمة تتحدث عن (البا) الحي وتعد الميت بأن يصبح باؤه حيّاً أيضاً وإنَّ التغيير الذي يذكر (التقمص الحي) يجب أن يفسر بأنه عبارة عن جثة متقمصة مع (با) حي وأن القوى التي تهب (البا) حياة دائمة متجددة هي جزء لا يتجزأ من قوته وقدرته الخلاقة التي لا تفني ولا تموت والتي من المفروض أنه يملكها في الدار الآخرة كما كان يملكها الميت أثناء حياته.

إنَّ كل مصري وخصوصاً أطفال الميت كان من واجبهم أن يهتموا بالميت بتجهيزه وتموينه بالهدايا المادية فضلاً عن الروحية واللعنات والرُّقى والتعاويذ ضد لصوص المقابر وكمية كبيرة من الطعام حتى إنَّهم كانوا يفكرون بتأمين وسائل المواصلات فلم يكن كل إنسان يصح له مثلاً أن يعطى عربة ذهبية كما صح لتوت عنخ أمون ولكن وجدت هنالك سفينة في كل قبر حتى ولو كانت مصنوعة من الطين فهذه السفينة تساعد (الكا) على عبور المياه التي تحيط بالحقول السماوية للمباركين المحظوظين.

ليس من السهل أن نحدد مكان وجود حقول المحظوظين هذه وبعكس الأديان الأخرى التي تلت فإنَّ الديانة المصرية ديانة مسالمة كما كان الشعب المصري في بداية تاريخه فالشمس والقمر والنجوم هي أول الأشياء التي أثارت خيال المصريين وفيما بعد أضيفت إلى هذه الأشياء بعض الأحجار الغريبة الشكل والأشجار الوارفة الظلال والثعابين الخطرة والتماسيح وكل هذه كانت لها قوى إلهية مقدسة.

كانت مصر بلاداً كبيرة بالنسبة للشعب في العصر الحجري وعصر الحديد فقد كان الشعب يتصور البلاد أكبر بكثير مما نتصوّر الآن وهذا هو السبب الذي جعل المصريين يطلقون أسماء مختلفة على نفس الإله: فمثلاً الإله الحامي كان يدعى (سيف) في مصر العليا و(حوري) في مصر السفلى.

وقد كان تشكيل إمبراطورية حورس التي وحدت مصر العليا والسفلي تحت قيادة مصر السفلى حدثاً له أهميته التاريخية العظيمة.

وإنَّ ورقة بردي (حاريس) تقدم تفاصيل حول ثروة معابد هيليوبوليس ففي زمن رعمسيس الثالث كانت هيليوبوليس أكبر من ممفيس بـ (160 ضعفاً) وفيها مواشٍ أكثر بأربعة أضعاف ونصف من ممفيس والسكان أكثر أربعة أضعاف وإنَّ امتلاك 103 قرى مجاورة أضافت إلى العاصمة أهميَّة اقتصاديَّة وكذلك التقويم الذي يرجع تاريخه إلى عام (4240) ق.م فقد وجه إلى هيليوبوليس وكما يكتب العالم (كورت شيث) في كتابه «التاريخ الأساسي في الديانة القديمة للمصريين»

فإنَّ الشمس كانت تعبد في هيليوبوليس وتعتبر كأعلى وأقدم كائن الهي وكان أقدم إله رئيسي في مصر هو تشخيص النور وهو الإله (رع) الذي يعني (الشمس) وقد نشأ «رع» من الاتحاد الجنسي أي تزاوج الأرض والسماء «كب ونت» الأب الأرض والأم السماء وتتجدد حياة (رع) كل ليلة حتى إنَّه في كل صباح يولد (رع) ثانية وهذه أقدم نسخة للقصة.

أما في هيليوبوليس فيعتقد أن الشمس ليس لها أب أو أم وبدلاً من ذلك اعتقدوا أن الشمس تشرق وتظهر من خلف تلة، وتجلب الضوء والحياة والحركة إلى العالم وكان إله الشمس (رع) في هيليوبوليس يقابل الإله المحلي (أتوم) (الذي يعني الكل أو الكون) وكنتيجة لذلك فقد دعيت الشمس «رع ـ أتوم».

وقد صور (أتوم) كملك مصري يحمل رموز الحياة والشفاء بين يديه فقد بدأ (رع ـ أتوم) نشاطه بعمل فريد من أعمال الخلق فقد أوجد إله الهواء (شو) وإلهة الماء «تيفنوت» وذلك بأن سعل فاوجدهما في الحياة وهما بدورهما وطبقاً لرواية هيليوبوليس أنجبا (كب) و«نت» أي الأرض والسماء وكلاهما ولدا بعد زواج واتصال جنسي.

وقد احتفظ (رع) لنفسه بمركز الخالق وأعلى قوة حاكمة طيلة التاريخ المصري ما عدا فترة قصيرة حل محله إله ممفيس (بتاح) وبعد الأسرة الرابعة صار ملوك مصر يحملون اسمَ (ابن رع) ومنذ حكم «خوفو» أصبح جميع الملوك الذين اختيروا للحكم من الأسرة الملكية يحملون اسم (رع) و(ددفرع) و(خفرع) و(ميكورع) وقد أَتَتْ المملكة القديمة التي كان مركزها «ممفيس» حوالي القرن الحادي والعشرين ق.م وحلت طيبة مكان ممفيس وقد مد ملوك طيبة سلطتهم حتى (إيبيدوس) ثم سنْت وأخيراً على جميع أراضي مصر وأسسوا المملكة المتوسطة حوالي عام 2850 ق.م والإله الذي ساعد ملوك المملكة المتوسطة على النصر هو الإله الصقر (مونتو) وهو إله الحرب ولكن في بداية المملكة الحديثة حوالي 1600 ق.م ظهر إله جديد حصل على السلطة والنفوذ في طيبة وهو أمون أي الخفي وهو إله نسمة الهواء الخفية وهو

أحد ثمانية الآلهة الأصلية في (هيرموبوليس) وقد بني له معبد ومذبح على تلة الخليقة في الكرنك.

وقد عاش أمون باسم (أمون رع) بعكس الآلهة الأوائل الذين كانوا رموزاً لعصر الفوضى فأنزل مركزهم إلى العالم السفلي الماضي. وكأحد الشعوب المستنيرة الواقعة الموجودة في التاريخ وجد المصريون القدماء بعض الصعوبات في تصور وتخيل آلهتهم. فأوّلاً نظروا إلى الثعابين والأسود في الصحراء وإلى بنات آوى التي تتربص القبور وإلى البقرات التي ترعى برفق وسلام ولكن وجد المصريون من الصعوبة بمكان أن يعزوا الصفات الإنسانية كاللطف والعنف والحب أو البغض والحماية أو العقاب لهذه الحيوانات. وهكذا وضعوا رؤوس حيوانات في أجسام إنسانية وبعد ذلك أصبح الصقر يستعمل جناحيه ليضرب أو يحمي وحتى التمساح أصبح قادراً على إنجاز الأعمال البشرية.

إنّه لمن المستهجن ربط الإيمان بعبادة الحيوانات وطبيعتها الإلهية فعبادة الحيوانات وجدت في جميع الحضارات المتطورة تقريباً ولكن معظم هذه الحضارات كانت تميل لنبذ معتقداتها الحيوانية كلما تقدمت وتطورت الأحوال العقلية والروحية ولكن مع الأسف لم يكن هذا ينطبق على المصريين. إن الرحالة الإغريقي الفيلسوف لوسيان يحكي قصصا غريبة حول الآلهة الحيوانية وعبادتها في مصر.

كانت المعابد المصرية فسيحة وجميلة ومبنية بالحجارة المكلفة ومزينة بالذهب واللوحات الزيتية ولكن إذا سألت عن اسم الإله الذي كرست له كل هذه الأشياء فإنّهم سيخبرونك أن الإله هو قرد أو ثور أو كبش أو قط.

ثم هنالك الجغرافي الإغريقي سترابو يتكلم من الفيُّوم: «قرب مدينة التماسيح يعيش التمساح في بحيرة وهو أليف مع الكهنة ويسمونه (سوشس) ويطعمونه الخبز واللحم والنبيذ التي يجلبها له الغرباء الذين يأتون لزيارة التمساح وقد أرانا مضيفي وهو رجل من الأعيان الأشياء المقدسة هناك وذهب معنا إلى البحيرة.. وقد جلب معه كعكة صغيرة وبعض اللحم المشوي وزجاجة شراب العسل. وقد وجدنا الحيوان مستلقياً على الشاطئ وقد تقدم الكهنة وفتحوا فكيه وأدخل بعضهم الكعكة إلى داخل الفم وبعدها

اللحم وأخيراً صب شراب العسل خلال الحلق. وأما التمساح فبعد أن شعر بالشبع والتخمة قفز إلى داخل البحيرة ثم سبح إلى الشاطئ الآخر. وفي أثناء ذلك كان هنالك شخص غريب آخر قد أتى ومعه هدايا أخرى أخذها الكهنة منه وداروا حول البحيرة وبعد أن وجدوا التمساح دسوا له الطعام بنفس الطريقة».

ولا يفوتنا أن نذكر أن كلا الوصفين كتبهما المسافرون والسواح الذين لم يكونوا يعرفون الكثير عن هذه الديانة فقد كان إطعام الحيوانات على ما يظن يجري بابهة عظيمة وظروف معينة.

إن تفسير عبادة الحيوانات في الديانة المصرية القديمة تعتبر أن ما قد بدا كخرافة أو أسطورة تحول فيما بعد إلى تقاليد تاريخية. وحيث كان أفرد الشعب يقارنون الإله القمر بالثور (إيبيس) والآلهة (باسنيت) بالقطة فإنَّهم فيما بعد انتقلوا من المقارنة إلى الدمج ولكن الحقيقة القائلة: إنَّ هنالك كثيراً من الآلهة لحيوانات ليس لها أي مماثل في الطبيعة هذه الحقيقة تأتي مناقضة للنظرية. وهنالك نقطة أخرى وهي أن الديانة المصرية تبرز كثيراً من الإلهة التي توجد في المدنيات الأخرى. وهكذا فقد كان (أمون) متحداً بالكبش وسيباك بالتمساح (وثوث) بإيبيس الثور «وباستيت» بالقط. ولهذا نجد أن هنالك قليلاً من الآلهة «الحيوانية النقية» فغالبيتها تملك طبيعة مزدوجة لها خصائص مزدوجة تقريباً.

الحيوانات المقدسة:

لقد عبد المصريون القدماء كل الحيوانات التي عرفوها وكان ذلك يشمل القطط والأسود والكلاب وبنات آوى والقرود والفيلة وفرس الماء والتمساح والمواشي والبقر والضفادع والسلاحف والثعابين والأسماك والجعلان والذباب.

ولكن كان هنالك تفريق ذكي في الاحترام والتبجيل الذي كان يقدم لكل فرد من أفراد الحيوانات هذه فبعضها كانت تعتبر مقدسة والأخرى كانت تعبد وكان هنالك ثور واحد يسمى «إيبيس» يعبد كإله وكان هنالك قط واحد إلهي في

(بوباستيس) وهنالك «كبش» واحد يدعى (أمون) في هيكل الكرنك وتمساح واحد في (كروكود يلوبوليس) أي حيوان واحد من كل نوع يعتبر الأعلى والأعظم ولكن جميع تلك الطبقة كانت محترمة إكراماً لرئيسها المقدس.

والحيوان الإله يندمج ويتحد مع آلهةِ عدة أقاليم فالثور (إيبيس) كان متحداً مع (بتاح) والكبش الطيبي متحداً مع أمون المولود حديثاً أما التمساح فكان متحداً مع الإله سيباك.

إن كل من يقتل حيواناً مقدساً حتى في حالة الدفاع عن النفس يعتبر مذنباً بانتهاك حرمة المقدسات التي كانت عقوبتها الموت. وإذا كان من الواجب والضروري ذبح حيوان فكانت تقدم القرابين السخية أولاً فقد اعتقد المصريون بإعادة التجسد للحيوانات (التقمص) (أي قدرتها على الرجوع بشكل آخر بعد الموت) وخافوا من انتقام الحيوانات الأخرى للحيوان المتوفَّى. وفوق ذلك فمن الواضح أن المصريين القدماء رأوا أقاربهم المتقمصين في الحيوانات التي كانوا يعبدونها. وهذا هو التفسير الوحيد المعقول لممارستهم بعض العادات والممارسات السيئة فقد روى هيرودوتس أنه رأى بأم عينيه امرأة تزني علنا مع كبش وكان من العادة جلب النسوة إلى العجل إيبيس..

وقد روى الدكتور الفريد ويدمان الأستاذ في جامعة بون في كتابه (عبادة الحيوان عند المصريين القدماء): إنَّ كثيراً من الحيوانات الصغيرة كانت تحفظ في منازل خاصة وتعتبر كآلهة وتحفظ في أقفاص تشبه الكنائس الخاصة وتقدم لها الهدايا والتقاديم الأخرى وترى في مواكب يحيط بها الشباب المرتلين للعجل ايبيس أو أي حيوان آخر وهذه المناظر كانت شائعة ومحلاً للاحترام والتبجيل من قبل الجموع المتدينة المخلصة. وقد كتب الأستاذ ولديمان يقول: كانت المواكب الجنائزية الضخمة المترفة تنتقل في الشوارع لحمل الحيوان المقدس المتوفَّى إلى مثواه الأخير ولذا كان الحيوان محاطاً باحترام وتبجيل خاص فإنَّ قبره يوضع في بناء منفصل وهكذا ففي حوالي عام 1500 ق.م بنيت معابد صغيرة على مرتفعات مدرجة فوق مدينة الموتى في (صقارة) وكان الحيوان يحاط بالهدايا وقد وضع في مقره الأخير في قبره

obeikandl.com

الصخري تحت المعبد الصغير. وغالباً ما كانت هذه المخلوقات لا تدفن في مقابر منفردة ولكن في نقطة من الأرض تشبه بقعة دفن (إيبيس) في ممفيس حيث كان يخصص لكل حيوان حجرة تعتبر مقصورة لمثواه الأخير وكموطن سكن أبدي لروحه. وبالقرب من تلك القبور هنالك غرفة خاصة لجميع سكان القبور وكان من المعتقد أن قوة أرواح هذه الحيوانات الميتة عظيمة ولها تأثيرها حتى إنَّ رجال الدولة بما فيهم أحد الأمراء وهو ابن الفرعون (رعمسيس الثاني) قد أمروا بإعدادِ مثواهم الأخير وسط هذه القبور وذلك للتمتع بحماية هذه الأرواح المقدسة الإلهية.

ولكن أخيراً فضل المصريون استعمال قبور مشتركة جماعية بدلاً من بناء قبور جديدة للحيوانات فالمغاور الطبيعية التي استعملت كمقابر قديمة ونهبت جثثها وكنوزها في هذه المغاور استعملت كقبور جماعية للحيوانات وقد كومت مئات بل ألوف من جثث الحيوانات في هذه المغاور وعادة كان نوع واحد خاص فقط يدفن في كل موقع تبعاً للإيمان السائد بذلك الحيوان في المنطقة مثلاً كانت قبور (إيبيس) التي نهبت منذ عهد طويل توجد في (صقارة) وقبر التمساح العملاق في (منفلوط) وقبر القرد في «طيبة». أما في المناطق الأخرى فكانت جميع الحيوانات المقدسة الميتة تجر من جميع المناطق القريبة والبعيدة وتوضع بعضها مع بعض بغض النظر عن أجناسها وأنواعها.

إن قضية تأليه الحيوانات في مصر القديمة يرجع تاريخها إلى العهد الذي كان إنسان العصر الحجري يقف به عاجزاً أمام الطبيعة حوله. وفي ذلك الزمن كان يأمل أن يطعن الحيوان الذي يريد أن يقتله وذلك برسم صورته على جدران كهفه عندما كان الحيوان ذلك المجهول الذي لا يمكن فهمه أو التنبؤ به يبدو وكأنه شيطان.

تخصيص الإلهة:

بعد أن توحدت الأقاليم الكثيرة في إمبراطوريتين أصبح هنالك إفراط وزيادة في عدد الآلهة، فلم يكن بالمستطاع الاستغناء عن أي من الآلهة بل بدلاً من ذلك اصبح يعين لكل واحد منها وظيفة معينة فأحد الآلهة كانت وظيفته خلق الأطفال

وآخر كان للعناية بالموتى، وواحد مسؤول عن الزراعة وآخر عن الحرب وهذا بدوره سمح لكهنة الآلهة بجمع معلومات جديدة عن الناس الذين يتعاملون معهم وهكذا يزيدون في معارفهم ومعلوماتهم وفيما بعد عندما أصبح الفرعون قادراً على أن يمتص معرفة جميع الكهنة وعندما أصبح قصره مركزاً للمعارف التاريخية والمنجزات الفكرية فهل هنالك من عجب إذا رأينا الشعب يحترم الفرعون كأنه إله واسع المعرفة وعزيز القوة؟.

لقد ظهرت البدايات الدينية وانبعثت من مصر السفلى حيث كانت مميفس (وصقارة) و(هيليوبوليس) هي المراكز الدينية ففي ممفيس كان الإله بتاح ذو الرأس الأصلع والصولجان المتأرجح يتمتع بأعظم هيبة واعتبار وقد اعتبر بأنه الإله الخالق كما كان الإله (هيفاستوس) في الأساطير اليونانية وفيما بعد دُمج (بتاح) مع إله الموت (سوكاريس) الذي له رأس صقر وعندما جعل أوزريس سيد العالم السفلي نشأ إله ذو ثلاثة رؤوس بتاح ـ سوكاريس ـ أوزيريس. وأما آبيس الثور فكان ينتمي إلى بتاح.

وفي معبد الشمس هيليوبوليس كانوا يعبدون ثوراً اسمه منيفيس وأما الإله الرئيسي في هيليوبوليس فكان (رع) إله الشمس وكان يمثل باسم (رع هاراشتي) ويرمز إليه برأس الصقر وقرص الشمس (وحارشيت) هو بالطبع حورس الإله حامي دلتا النيل ومصر السفلى.

وكان أول مكان عبد فيه حورس هو (دمنهور) وبعد اتحاد الإمبراطوريتين العليا والسفلى أعطي إقطاعية أخرى في مصر السفلى وهي مدينة تدعى (أدفو) في تلك الأيام.

وطبقاً لرأي المؤرخ (ديودوروس نيكولوس) فإن حورس هو ابن ايزيس «وهي إلهة تشتهر بمهارتها في الطب» اشتغل كطبيب وساحر وكان يدعى رئيس الأطباء في منزل (رع) وهنالك قطعة من الفخار كبيرة موجودة في ستراسبورغ تحمل السطور التالية:

ـ إن كلمات (حورس) تغلب الموت بإبقاء كل من يقاتل لأجل كرامته حيا.

ـ إن كلمات (حورس) تجدد الحياة وذلك بجعل السنوات دائمة لا تنتهي بالنسبة لأولئك الذين يزورونه.

ـ إن كلمات حورس تطفئ النار وتعاويذه تشفي المحمومين.

ـ إن كلمات حورس تنقذ الرجل الذي يقف القضاء والقدر له بالمرصاد.

ـ إن كلمات حورس السحرية تجعل الإنسان يتفادى ضربات القوس وذلك بجعل السهام ترجع إلى الوراء.

ـ إن كلمات حورس تبعد الغضب وذلك بتهدئة الحواس.

ـ إن سحر حورس يشفي المرض.

وأما الأسطر الأربعة الأخيرة فإنّها لم تحفظ تماماً ولكن التأكيد على قوة كلمات حورس ورقابته السحرية واضح تماماً.

وأما حاثور الإلهة الكبرى المعبودة في مصر العليا حيث كانت تعرف باسم (البقرة الأولى بين جميع البقر) وصورها تظهرها كامرأة وسيمة لها أذنا بقرة وقرناها وأحياناً كانت ترسم صورة الشمس الغاربة بين قرنيها وكانت هي إلهة (الغرب) حيث ترتاح الشمس فوق سلاسل الجبال قبل أن تختفي بينها وذلك لكي تمكن الأموات من دخول العالم السفلي وكانت منافسة حاثور الكبرى هي (موت) وهي تجسيد لروح الأمومة وكان مركز نفوذ (موت) في طيبة حيث كانت تعبد كآلهة للحرب وتظهر هناك برأس أسد وقد رفعت لتكون زوجة للإله أمون. ولكن ممفيس كانت تبرز الإلهة العظيمة (ساكميت) التي كان لها رأس لبؤة أيضاً كيما تناسب إلهة الحرب التي يمكن أن تنفث النار على الأعداء عند اللزوم وأما في الرسوم فإن الإلهة (ساكميت) كانت تختلط مع رسوم (باستيت) الإلهة ذات رأس القطة مع أن شخصيتي تينك الإلهتين وأهميتهما متعارضتان تعارضاً مباشراً فباستيت (بالنسبة لبلدة باست) كانت تجسد الفرح والبهجة وليس الحرب وإنَّ تعدد الإلهات الإناث والوظائف التي أنيطت بهن ما هي إلا دلالة على أن المرأة كانت تلعب دوراً بالغ الأهمية في المجتمع المصري القديم.

obeikandl.com

والحقيقة أن سيت وحورس الإلهان الحاميان لمصر العليا والسفلى احتلا منزلة خاصة في التاريخ الديني المصري. فالمقطع 222 بنصوص الأهرام التي تحتوي أيضاً طقوس التتويج في (هيليوبوليس) هذه النصوص تؤكد التقسيم فأصبحت الإمبراطورية الشمالية تابعة لحورس والجنوبية تابعة (لسيت) وهكذا كانت مصر العليا تقول للملك «إنّ سيت قد أعطاك مقره» وأما مصر السفلى فكانت تقول «إن حورس قد أعطاك عرشه» وكانت الشلالات في الألفنتاين تعتبر أنها انهمار الإله سيت أما مصب النيل في البحر المتوسط فهو انهمار حورس.

وفي أول الأمر كانا عدوين ولكن بعد توحيد الإمبراطورية أصبحا أخوين مع أن (حورس) كان دائماً يعتبر أنه هو السلطة العليا.

ولو لم يكن (سيت) إلهاً فمن العدل أن ندعوه الشخصية المأساوية وذلك بسبب التشوهات الجسمانية فيه فقد كان يصور كحيوان ولكن من الصعب تحديد نوع ذلك الحيوان فعلماء الآثار قد اختلفوا في تحديد هويته وتجسيدها فالعالم (إيدمان) يمثله كحيوان إفريقي يشبه الزرافة ولكنه غير طويل العنق وأما (سكونيفورث) فيدعوه بآكل النمل (أبو ذقن) وأما نيوبري فيدعوه بالخنزير ذي الثآليل. وأما فون بسنغ فيدعوه بالزرافة وأما ما سبيرو فيدعوه بالجربوع ومن المظنون أنه كان فيه صفة من كل هذه الحيوانات المذكورة أعلاه. وكان (لسيت) عينان حمراوان. واللون الأحمر بالمقارنة مع اللون الأخضر المبارك هو لون الشر.

وليس هنالك أي تفسير مناسب لتلبس (سيت) برأس حمار ومن المظنون أن تلاميذ حورس صوروا «سيت» بهذه الصورة على شكل كاريكاتور ولكن هذا الكاريكاتور أي (سيت) برأس حمار أعجب الجمهور واحتفظ به سيت حتى بعد عصر توحيد الإمبراطورية ولكن الفراعنة كانوا مندمجين بحورس وقلما اندمجوا مع (سيت) وعندما كان الفراعنة يسجلون انتصاراتهم باللغة الهيروغليفية كانوا يصورونه بصورة صقر مرسوم على شارة من ذهب فالصقر هو (حورس) وأما الذهب فهو يرمز إلى الإله من (أومبوس) وهو (سيت).

obeikandi.com

وبينما كان سيت لا يتمتع بكثير من الحب فإنّ (ثوث) كان له خط عظيم في هذا المضمار فثوث الذي يحمل رأس الثور (إيبيس) أتى من دلتا النيل وكان يعتبر إله القمر ولكن ربما أن المصريين رأوا القمر ينمو ويزداد ثم يعود ويضعف ويشحب فوجدوا به تمثيلاً للنظام فاعتبروا (ثوث) رياضياً وكاتباً للإلهة ولكن لا أحد يعلم لماذا كانوا يصورونه بشكل قرد ضخم قبيح المنظر.

ولكن (ثوث) لم يكن يخلو من منافسين كإله القمر ففي طيبة كان الإله (تشونز) يقوم بذلك العمل الروتيني وكان لمعظم الإلهة في مصر مثل هؤلاء المنافسين حتى إله الموتى العظيم أوزيريس وزوجته (إيزيس) اضطرا لمحاربة وخلع كثير من الآلهة الأخرى قبل أن يصبحا الحاكمين المطلقين للعالم السفلي. وقد أتى (أوزيريس) من (بوصير) حيث عبد لأول مرة هناك ومن المظنون أنه كان أحد الملوك في فجر التاريخ وقد سبب موته الإيحاء بسفر كامل من أسفار علم الأساطير. وفي بداية الألف الثالث ازداد نفوذ أوزيريس في مصر أولاً في ممفيس حيث امتص أهمية سوكاريس وبعد ذلك امتد نفوذه إلى إبيدوس حيث حل محل الإله الأول في الغرب واصبح إله الموت المعبود حاكم العالم السفلي.

وفي بلدته الأصلية (بوصير) كان أوزيريس يصور كعمود له تاج مضلع وهذا شعار يعني بالكتابة الهيروغليفية «الدائم أو الأبدي»، فالموت أبدي ودائم. وتظهر الصورة والتماثيل أوزيريس كمومياء لها وجه أخضر لأنه عاش وأخضر وقد لبس تاج الفرعون وحمل شارة السلطة وهي صولجان ومروحة يدوية.

ويضطجع أوزيريس تحت الأرض والعالم كله فوقه وعندما يتحرك تتحرك الأرض وتنمو النباتات من جسمه وتحوله إلى قمح جديد وبما أن الماء ينساب من قدميه فقد أصبح (المطر الجديد) وكان النيل هو من تعرق يديه. كل هذه المعتقدات جعلت من أوزريس إله النظام الطبيعي فهو الذي انبعث كأرض خصبة من تحت مياه النيل أثناء الفيضان وكان هو إله الحقول الخضراء والخريف المائت والواعد بالحياة المتجددة في الربيع القادم.

وكان لأوزيريس بصفته إله الموتى ثلاثة مرافقين لهم رؤوس كلاب وهم (أنوبيس) حارس الموتى والأخوان (أبنات) وهما رفيقاه في المعارك ولكن أوزيريس كان ضحية آلهة القضاء والقدر الأشرار وتقول الأسطورة: إن (سيت) قتله ولكن (حورس) ابنه انتقم لوالده وبعد ذلك عاد اوزيريس واستيقظ ليمارس حياة جديدة وقد أصبحت هذه الأسطورة نموذجاً للعناية المتزايدة بالموتى فكان من واجب الابن أن يجهز قبر والده ويرعى ذكراه ويتحول إلى خلف صالح ولقد اتبع هذا التقليد بشكل حرفي حتى إن بعض النبلاء الأموات انتحلوا اسم اوزيريس وكانت الأمهات تندبهم ويسمين أنفسهن باسم (نات) وزوجاتهن يسمين أنفسهم (إيزيس).

كان أوزيريس يضع ريشتين وهما رمز للشرف الملكي وكانتا رمزاً لقدرة الإله المحلي للإقليم التاسع في مصر السفلى وقد اندمج الإله المحلي هذا بأوزيريس ونتيجة لذلك أصبحت عاصمة الإقليم تدعى (بيت أوزيريس) واليوم تدعى (أبو صير).

محاكمة الموتى:

إن كل من فارق الحياة عليه أن يواجه محاكمة أوزيريس، وكان هذا يجلس في قاعة بين آلهتي العدالة يحيط بهما اثنان وأربعون شيطانا يحملون المدى والسكاكين. وكان هؤلاء الشياطين من أكلةِ الظل واللهب وأكلةِ الدم وكان كل واحد منهم يمثل واحداً من اثنين وأربعين من الخطايا والذنوب المحتملة الوقوع بين البشر وكان على الشخص الميت أن يبرهن أنه لم يقترف في حياته هذه الذنوب وإذا نجح في ذلك فإن الشياطين لن تهاجمه.

وبعد أن يثبت الميت براءته يأخذ (حورس) هذا القادم الجديد بيده ويقدمه إلى والده أوزيريس كعضو جديد في العالم السفلي وقد أجريت بعض الإحصاءات عن عدد الأشخاص الموجودين في العالم السفلي في مصر القديمة فوجد أن العدد يتراوح بين 150 إلى 200 مليون في الفترة الواقعة بين مصر القديمة والإمبراطورية الحديثة.

وقد ظل الدين المعترف به قائماً طيلة هذه المدة فيما عدا مدة واحدة وهي خلال القرن الثالث عشر ق. م عندما ألغى الفرعون أمنحوتب الرابع تعدد الإلهة لمدة عشرين عاماً ودعا نفسه (أخناتون) ولم يسمح إلا بعبادة إله واحد هو (أتون) والان دعنا نبحث كيف حدث هذا التغير الرئيسي في تاريخ الديانة المصرية.

إنّ فكرة أتون بدأت بالظهور في المملكة المتوسطة كعلامة أو لقب مميز (لنجمة الصباح) فقد قيل عن التماثيل الملكية في معبد أمنحوتب الثالث في طيبة أن هذه التماثيل تسطع ببريق يفوق لمعان السماء ووجوهها مشرقة كوجه أتون المتوهج في الصباح. وكانت (أتون) نجمة الصباح بالطبع هي الشمس وليست من اختراع أخناتون.

إنّ (والتر ولف) الذي درس خلفيات الإصلاح الديني الذي قام به أخناتون قد دقق بترانيم الإله الشمس بعناية فائقة وقد خلص إلى الفكرة بأن كلمات وعبارات هذه الترانيم كانت أقل أهمية من الروح التي تمثلها تلك الأغاني والترانيم.

ولو ظهرت فكرة الإصلاح أثناء حكم أمنحوتب الثاني لكانت أظهرت على الأقل بعض العناصر التي وجدت في ترانيم (تل العمارنة) (عاصمة أخناتون فيما بعد) وهي التعابير الواضحة للدين الجديد. ولكن وجد (ولف) أن الأفكار القديمة التي كان المصريون يحفظونها عن الشمس منذ أقدم الأزمنة لم تزل سائدة. وفي تلك الترانيم نجد آتون و(حاراست) وتشيبر جنباً إلى جنب وفوق ذلك كان هنالك ذكر مبتكر لصورة إله الشمس القرد.

كما تختلف الترنيمة لإله الشمس التي نقشها (حورس وسيت) وهما بنّاءان اشتغلا أثناء حكم أمنحوتب الثالث على إحدى الأعمدة التذكارية أن مجرى الأفكار في تلك الترنيمة يشبه أفكار ترنيمة (آتون) وفي البداية هنالك مقطع تظهر فيه قوة تأثير الفكرات القديمة وبعد ذلك يذكر استيقاظ الحياة عند شروق الشمس وتقول الأبيات من السطر الخامس حتى السابع من تلك الترنيمة ما يلي:

عندما تظهر في الصباح يبدأ عمل الصباح في التشكل وعندما تظهر في جلالك وهيبتك فإن النهار يكون قصيراً فأنت تكتسح السماء في رحلة تبلغ ملايين ومئات الألوف من الأميال وإنَّ الزمن أسفل منك فأنت تستيقظ لتشرق في الصباح وإن أشعتك المشرقة لتفتح العيون.

قارن هذه الكلمات بترنيمة آتون:

إن الأرض تصبح لامعة ومضيئة عندما تشرق على جبل النور وعندما تشرق أنت يا آتون بطلعتك تطرد الظلام. أنزل علينا أشعتك السماوية فتنتشي الأرضون بالسرور والغبطة ويستيقظ البشر ويقفون على أقدامهم فأنت الذي سببت استيقاظهم ونهوضهم فهم يغسلون أطرافهم ويلبسون ملابسهم ويرفعون أذرعهم بالدعاء والعبادة لأنك تنير لهم السبيل وكل الأرض تعمل لمرضاتك.

لم يكن آتون شيئاً جديداً:

كتب (جورج مولر) وهو أحد علماء التاريخ المصري من برلين دراسة يؤرخ بها النصوص الأدبية الصادرة عن النصف الأول للملكة الحديثة ويقول فيها: إنَّ الترنيمة المذكورة أعلاه قد كتبت خلال حكم أمنحوتب الثاني أو تحوتمس الرابع ولكن من المؤكد أنها قد كتبت قبل اعتلاء أخناتون العرش.

ولكن ولتر وولف حلل الترنيمة كما يلي: «تبدو بأنها مجموعة متراكمة من الترانيم وبها شخصيات رئيسية مختلفة مثلاً: شخصية (أمون رع) من الكرنك (مين ـ أمون) (آتون تشيير) من هيلوبوليس والهارشتي وكان هذا الإله يعتبر ملك الإلهة وذلك نظراً للإشادة بتاجه وصولجانه وأعماله الأسطورية في الأغاني أو بواسطة تكريم الإله وخلفه. وكانت ملاحظة الطبيعة بسيطة وتظهر اقتراباً من الطبيعة وهذا ليس بغريب على أولئك الذين يعرفون رسوم القبور المصرية التي تظهر في هذا النص كقضايا جديدة وغير عادية».

قارن البيت الآتي: أنت أنت الواحد الأحد الذي خلق جميع المخلوقات الوحيد الذي كان وما يزال واحداً وهو الذي خلق جميع المخلوقات.

هذه هي ترنيمة أمون أما ترنيمة أتون فهي تمدح الخالق وتقول: أنت الإله الوحيد لا إله غيرك. لقد خلقت هذه الأرض حسب رغبة قلبك أنت الإله الواحد ولا إله غيرك.

وبينما نرى أن أمون يُمدح لكونه الواحد الذي خلق الأعشاب التي ترعاها الماشية والواحد الذي يعطي الهواء للفراخ وهي في البيضة نرى ترنيمة أتون لمنحه الفضل لجعله جميع المواشي تعطي الشكر على العلف وأن أتون هو الذي منح الهواء للفراخ وهي في البيضة ويظهر مما تقدم أن ديانة أخناتون لم تكن دينا جديداً ابتدعه شخص واحد وفي الحقيقة إن بعض علماء التاريخ المصري بعد أن درسوا بعض الوثائق التي تعود في زمنها إلى حكم أمنحوتب الثالث كان تخمينهم بأن أمنحوتب الثالث هذا لم يكن مبتدع الإصلاح ولكن هذه النظرية أيدتها نقوش مصرية موجودة في متحف برلين الآن وهي تصور أمنحوتب الثالث يقدم القرابين للإله أتون فلربما أنّ أمنحوتب الرابع أو أخناتون لم يكن هو المبادر الأول للإصلاح، أن تلك النقوش واضحة وحقيقية تماماً ولكن هنالك سر لم يكتشف إلا بعد أن نشر (هنريخ شاخر) كتابه عن الفن المصري عام 1963 فقد أثبت (هنريخ شاخر) أن الحجر المنقوش عليه هذا الرسم قد لعب به بعد سنوات من نقشه وبعد موت أمنحوتب الثالث بقليل قام أصحاب الإصلاح العتيد بمحو صورة الإله الذي كان منحوتاً ونحتوا بالأزاميل صورة الإله أتون.

إنّ الدور الذي لعبته والدة أخناتون وهي (تيجي) في الإصلاح الديني المصري لا يزال موضع جدل ومن المؤكد أنها وهي زوجة أمنحوتب الثالث قد رسمت صورتها مراراً عديدة على الانصاب والتماثيل أكثر من أية زوجة فرعون آخر وهذا دليل واضح يثبت أهميتها إذ يجب أن تكون قد أثرت بفكرتها الدينية على أخناتون

ولكن لا نعرف بأي اتجاه فلم يرد أي ذكر (لتيجـي) فـي أي تسـجيلات أثنـاء السـنوات الحرجة من حكم أخناتون عندما نقل مقره الملكي إلى (العمارنه) وذلك لتعزيـز عقيـدة أتون ولـم تظهر صورها إلا بعـد العـام الثـامن مـن حكـم أخنـاتون وبعـد ذلـك ظـهرت الصورة في قبر خازنها السابق ومن الظـاهر أنـها عاشـت كأرملـة فـي مدينـة (روراب) ولـم تنتقل إلى العمارنة بل عاشت بقية حياتها هناك .

وجد رقيم مكرس لأوزيريس وهو إله الموتى في الدين القديم في مدينة روراب وهذا أدى إلى الافتراض بأن (تيجي) ظلت تتمسك بالدين القديم ولكن نعود ونقـول إنَّه ليـس مـن الضـروري أن تكـون هـذه الفرضيـة موثوقـة فمـن الممكـن أن يعمـد أحـد الكتـاب أو الكهنـة إلـى تزييـف هـذا الأثـر لأنــه فــي أثنـاء حكـم أخنـاتون لـم يعـد (لأوزيريس) أي نفوذ إذ لم يكن هنالك إلا إله واحد هو (أتون) وهـو قـرص الشـمس وقد قبل الناس الذين ترعرعـوا علـى الديـن القديـم ، قبـل هـؤلاء الديـن الجديـد على مضض ولم يعارضوا الإصلاح فـالفكرات التـي آمـن بـها كهنـة الديـن الجديـد ودفعـوا امنحوتب الرابع إلـى اعتناقـها كـانت فكـرات ذكيـة لـم يسـتطع عامـة الشـعب قبولـها بسرعة ولكن أخناتون لم يهتم بتذمر الشعب كما أنه لـم يـهتم بـالروح العدوانيـة التـي قابل بها كهنة الدين القديـم هـذا الإصـلاح . وأمـا عامـة الشـعب فلـم يسـألها أحـد أن تتدخل لأنهم كـانوا يعتبرونـها غبيـة تعوزهـا الكفـاءة لمقاومـة الفرعـون وقـدرة حـرس قصره الأذكياء فطبقة الكهنة كانت طبقة بيروقراطية يمكن استبدالها بطبقـة أخـرى عنـد الرغبة والحاجة . وأخيراً ترك الفرعون الجديد مدينة طيبة وهي مدينة الإلـه أمـون تلـك التي أهملت وبدأ نجم العمارنة يسطع .

أن التطور الديني كان له أساس دنيوي أيضاً فكـان المصريـون قـد طـردوا حكـام الهيكسوس المكروهين وطـاردوهم إلـى فلسـطين وفـي بدايـة القـرن الرابـع عشـر ق . م باشر الفرعون تحوتمس الثالث الفتوحات التي حملت الجنود المصريين إلى خارج مصـر بحيث وصلوا إلى ضفاف دجلة والفرات وبدأت أفواج العبيد تتوارد إلى مصر وبدأت

الخزينة تستلم أموال الجزية المضروبة على الأمم المغلوبة وهكذا توسعت دائرة آفاق العالم المصري بشكل لم يسبق له مثيل.

بدأت المعلومات والعلوم الجديدة ترد من البلدان المستكشفة حديثاً فالنيل المقدس وهو شريان الحياة بالنسبة لمصر لم يكن محصوراً بمصر فقط فالأراضي الجبلية أيضاً كما كانت تقول ترانيم أتون كان لها نيل في السماء وهذا النيل ينحدر إليهم ويجلِبُ المياه والطوفان للجبال ليزيد في خصب الحقول.

اكتشف المصريون أن هنالك شعوباً أخرى لها ملوك وكهنة تسيطر على كل شيء؛ وتوجه كل شيء.

حكم أمنحوتب الرابع (أختاتون) لمدة تقل عن عشرين عاماً وعندما مات في عام 1358 ق.م مات دين (أتون) معه فقد نقل توت عنخ أمون مقر الفرعون من تل العمارنة وقفل راجعاً إلى طيبة حيث عادت سلطة الآلهة القديمة إلى سابق عهدها.